ماذا قال التاريخ للسيد جورج بوش وهو يناديه!؟

دعينا في غزة إلى اجتماع تشاوري للمجلس التشريعي في الأسبوع الماضي. ولم يتمكن نواب وخانيونس ونواب رفح من الوصول إلى غزة، لأن قوات الاحتلال سدت الطريق. ومن المفترض عقد المجلس في مقره برام الله اليوم الاثنين التاسع من أيلول. و علمت أثناء كتابة هذا المقال إن أربعة عشر نائبا من قطاع غزة ـ بينهم كاتب هذه السطور ـ ممنوعون من السفر إلى رام الله بأمر سلطة الاحتلال. وعدا عن ذلك فلا أحد يعلم كم عدد نواب الضفة الذين سيتمكنون من الوصول إلى مقر الاجتماع برام الله. ويخطر بالبال أن الواقع المستجد على الأرض والذي يتلخص في تكثيف جيش الاحتلال وأجهزته تنفيذ حمامات الدم في المدن والقرى والضواحي الفلسطينية، وقطع طرق المواصلات، وتدمير معظم مقرات السلطة، جعل الكلام عن مجلس نيابي وعن اجتماعات وعن وزارة، وعموما عن حياة سياسية طبيعية وديمقراطية أمرا مجازيا، وأبى شارون إلا أن يزيده مسخرة من عنده حين أعلن عن إلغاء جميع الاتفاقات المعقودة بين إسرائيل والفلسطينيين. ومعنى ذلك أن جميع ترتيبات التسوية التي نجمت عن تلك الاتفاقات باتت لاغية في نظر رئيس حكومة الاحتلال. فهو بصدد الاستمرار في تعويم الوضع الفلسطيني ودفعه إلى الفوضى العارمة. ولديه حتما مشروعه الذي يهدف إلى الترحيل مرورا بالمذابح الصغيرة والكبيرة وبمصادرات الأراضي وبناء المستعمرات الجديدة في الضفة وتوسيع المستعمرات القائمة في القطاع. وهو يعرف جيدا أن الفلسطينيين لن يأتوه رافعين الراية البيضاء. ومن الممتع له أن يجعل تصفيتهم الجسدية طقسا يوميا على مذبح الحمهرات الإسرائيلية. ويمتعه أيضا أن يجعل من تجريف نخيل وزيتون عمره سبعون سنة خرابا بديعا حول مستعمرة كفار دروم التي لا تستطيع العيش دون أن تحيل ما حولها خرابا.

لقد كتبنا مطالبين بتكييف أوضاعنا مع الحقائق التي صارت واضحة إلى هذه الدرجة. وقلنا إن الصيغة الصحيحة لهذا التكييف هي تشكيل لجان طوارئ على جميع المستويات، تكون وعاء لقوى الوحدة الشعبية وأداة للصمود وضمانة لعدم شيوع الفوضى والانفلات الأمني على الصعيد الداخلي الفلسطيني. أما تحديات المواجهة مع العدو فلا غنى عن الرأي الإجماعي المدروس بصددها وفقا لتقدير الموقف دون مزايدات ولا مناقصات. فآخر تصريحات شارون يوم البارحة تتحدث عن قرب سقوط السلطة الوطنية الفلسطينية. وهذا يمهد ـ حسب قوله ـ لولادة اتفاقات جديدة. ولسنا بحاجة للخيال كي نعرف أن الاتفاقات الجديدة التي يريد شارون شركاء على الطاولة للتوقيع عليها هي تلك التي تحرم الفلسطينيين من أية سيادة أو رائحة سيادة على وطنهم، وتجعل منهم مجرد سكان مقيمين كأنهم طرف مستأجر في عقد إيجار مع المالك شارون. بل ربما كان شارون يستكثر على الفلسطينيين صفة المستأجر. فحتى الاتفاقات التي يرمي إليها مرحليا هي اتفاقات مؤقتة من وجهة نظره وموطئ قدم للقفزة القادمة المنتظرة.

وبينما يجهز شارون لجولات جديدة في مخططه الحربي، يشعر بأنه يقف على أرضية صلبة داخل مراكز القرار في الولايات المتحدة. بل يشعر أن المضي قدما في تنفيذ أعتى المخططات الصهيونية التوسعية القديمة يتناغم ويتساوق تماما مع مشروعات الإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش، بحيث يصبح من العجز عدم اهتبال الفرصة السانحة.

فقد أسفر جورج بوش مرة أخرى عن طبيعة الحملة التي يجهزها ضد المنطقة (ولا نقول ضد العراق وحده). أما المرة الأولى فكانت عندما دعا نصا وحرفا إلى حملة صليبية. ثم جرى التخفيف من وقع تلك العبارة، عن طريق مبادرة بعض الناطقين الأمريكيين إلى إعطائها تفسيرا يقول إنها صارت تعني مع الزمن في المصطلح الأمريكي: النشاط الحثيث والحماسي. أي أن المفسرين أخرجوها من سياقها الديني والتاريخي ووضعوها في معنى اصطلاحي يستخدم لتوصيف أسلوب بالغ الجد والحركية في أداء عمل ما، على غرار الجدية والحركية يوم التنادي في أوروبا للهجوم على الشرق غداة خطاب البابا إيربان السابع. وها هو بوش نفسه يعود ثانية فيصر على ربط الكلمة بسياقها الديني، محرضا قادة أوروبا للمشاركة في الحملة بقوله: التاريخ يدعونا (!).

وفي اليوم التالي وجد آريئيل شارون الفرصة مثالية ليسفر عن الجزء المباح من سياسته فيعلن إن جميع الاتفاقات القديمة والجديدة بين إسرائيل والفلسطينيين ملغاة، بدءا باتفاقات أوسلو وانتهاء باتفاق غزة بيت

لحم أولا.

من هنا فإن مؤسسات التمثيل الشرعي الفلسطيني وهي رئيس السلطة الوطنية و المجلس التشريعي تجد نفسها بمواجهة هجوم متطور يهدف إلى بلورة نتيجة سياسية مرحلية معينة ذات مضمون احتلالي هو أشد إخضاعا مما كانت عليه اتفاقية أوسلو وتوابعها وأكثر نفيا لفكرة الاستقلال الفلسطيني. وقد ثابر أمثال بيريس وبن إليعيزر على التغطية والتمويه على مقاصد الخطة الشارونية كما ثابر المبعوثون الدبلوماسيون الأمريكيون على دورهم المألوف في كسب الوقت لصالح المخطط الأمريكي ـ الصهيوني المشترك عن طريق إجراء الاتصال مع بعض الشخصيات والرموز للإيحاء بأن التسوية في الطريق وأن الأمل معقود بالمفاوضات وتبادل وجهات النظر. وقد لا نعدو الصواب إذا صنفنا تصريح كولن باول الأخير حول الاعتراف بالرئيس عرفات رئيسا شرعيا للفلسطينيين ضمن دورهم المعهود في صب الطاسة الباردة بعد الطاسة الساخنة، وهكذا دواليك، حتى لايموت الذئب ولا تفنى الغنم.

غير أنه إذا مرت بادرة بوش التي تحدث فيها عن استرجاع التاريخ، ومضت تصريحات شارون التي تحدث فيها عن إلغاء الاتفاقات المعقودة وعن سقوط السلطة الوطنية، دون أن نفهم بالضبط معنى الكلام ودون أن ندرك ما يحمله من نذر داهمة فورية، وإذا عجزنا بالأخص عن تحديد الكيفية الواجبة لتأقلمنا وتكيفنا ومزاوجتنا بين الأطر السلطوية القائمة وبين أطر الطوارئ التي نقترحها والتي من شأنها الاضطلاع بالمهام الواجبة، فإننا نضيع الوقت سدى. وسنجد الشارع يقوم بالمهمة مضطرا دون أن يؤتى الإمكانيات اللازمة.

وإذا كان من البديهي في المعتاد لأية سلطة أو لأي إطار قائم أن يجد صعوبة في التأقلم مع الظروف الطارئة، لا سيما إذا كان يخشى المنافسة ولا يستطيع أن يثق بالآخرين، فإن الحالة الفلسطينية يجب أن تكون استثناء. فهنا الجميع مستهدفون. وليس جميع الفلسطينيين وحسب، ولكن جميع العرب والمسلمين.

إن كوندوليزا رايس تخاطب الأوروبيين مؤخرا، عقب خطاب رئيسها عن التاريخ وندائه، فتقول إن على الأوروبيين أن يفهموا أن لندن وباريس قد تتعرض لمثل ما تعرضت له نيويورك وواشنطن. ولكن هذه التخرصات التي تقصد منها حشد القوى والحلفاء للهجوم على العراق محض هراء. فالخطر الحقيقي هو الخطر الذي تمثله الولايات المتحدة في هذا الطور من أطوار التاريخ ضد عواصم الشرق كلها. والفرق واضح بين أن يقوم بن لادن وتنظيم القاعدة بعملية مفردة في غفلة من الزمان، وأن تهجم امبراطورية هائلة كالولايات المتحدة لتحرق الأخضر والناشف في بلد كامل كالعراق، لم تكن له أدنى علاقة بهجمة أيلول في أمريكا، وليس لديه على حد قول السيد ريتر رئيس فريق المراقبين السابق أية أسلحة دمار شامل.

لا ينبغي لنا نحن أعضاء المجلس التشريعي أن نغفل عن هذه الاعتبارات لدى انعقاد جلستنا اليوم. وهي الجلسة التي ستناقش مسألة الثقة الوزارية.

لقد ابتلينا بمن يتقنون فن الإمساك بالسلطة بواسطة الاستعانة بالفاسدين والمرتزقة كأنما الوطن ماخور ومقر عصابة، وما زال هؤلاء سادرين في أساليبهم على الرغم من إفلاس التجربة وخلو الوفاض مما يمكن تقديمه على مذبح التنازلات.

ونعرف أن كثيرا من البنيان الفاسد والتالف يحتاج إلى هدم وتنظيف، ولكننا ونحن نتولى مهمة الإصلاح يجب أن نكون واثقين من قدرتنا على بناء بديل أفضل، واثقين من أن إرادتنا هي التي ستعمل وتنفذ وتضع مشروعها الوطني موضع التطبيق. لأن من أعظم المصائب أن نكتشف بعدما قدمنا من ضحايا وتعب وشقاء وأعمار ضائعة أننا لم نفعل غير أن مهدنا الطريق لسارق كي يأتي في مكان خائب، أو أخلينا المكان من تافه لصالح خائن.

لقطات

? ليس كل شيء أسود كما يخيل للمرء أحيانا في هذه الأيام. هناك شعاع نور من.. لندن!! ويا للعجب. قال الراوي إن القناة الرابعة، وهي قناة أخبار مهمة قائمة إلى جانب البي بي سي في التلفزيون البريطاني

نظمت (محكمة صورية) مؤلفة من ممثل ادعاء وممثل دفاع ومحلفين لعرض قضية